وحقيقة النوايا والدوافع الاسرائيلية، فاستنتج، اولاً، ان «مشكلة اللاجئين الفلسطينيين كانت وليدة الحرب، وليس التخطيط، سواء أكان التخطيط يهودياً أم عربياً» (ص ٢٨٦)؛ اذ اعتبر موريس ان الاعتبارات العسكرية هي التي دفعت الاسرائيليين، بداية، الى تهجير السكان، وان انهيار المعنويات الفلسطينية بسبب الخلل الذاتي و«ذهنية الهرب» التي خلقتها المجازر الصهيونية قد ساهم، بقوة، في تشجيع الرحيل الجماعي. وأكد المؤلف عدم وجود خطة مركزية لتهجير جميع الفلسطينيين حتى نيسان (ابريل) ١٩٤٨، علماً بأنه نشأت قناعة صهيونية عامة بأهمية ذلك، وبضرورة عدم السماح بعودتهم؛ وتجسّدت بعد تموز (يوليو) بعمليات عسكرية، قصدها الصريح طرد الآهلين. وخلص الى ان مزيجاً من العوامل قد حكم الذهنية الاسرائيلية، من جهة، وساهم في تشجيع الهجرة لدى الفلسطينيين، من جهة أخرى، وليس عامل وحيد أوحد بأية حالة.

أثار هذا الكتاب مجموعتين رئيستين من الملاحظات، السلبية والايجابية. ويصعب الاتفاق مع استنتاجات المؤلف حول حدود النوايا العدائية والتهجيرية المتعمدة الصهيونية ـ الاسرائيلية، بذريعة استناده الى حقيقة عدم العثور على تصريح رسمي صريح، في الوثائق الداخلية، يطالب بالطرد الجماعي كسياسة رئيسة مركزية. ولكن هذا الاستنتاج يصطدم بثلاث مسائل؛ اولاها ان غالبية القرارات الخطيرة التي تضمّنت ارتكاب الجرائم السياسية في التاريخ لم تكن مدوّنة في وثائق رسمية، بل جاءت تدريجياً وضمنياً. وثانيتها، ألا وهي امتناع المؤلف عن استخدام المصادر الشفوية، والتي كان بامكانها ان تؤكد ما هو غائب عن الوثائق المكتوبة، وفي هذا روى الكاتب الاسرائيلي بيرتس كيدرون مثالاً، مشيراً الى أسلوب بن ـ غوريون الدائم بعدم تسجيل رغباته خطيّاً من أجل تفادي اللوم لاحقاً: «ففي احدى المناسبات، سأله اسحق رابين ماذا يفعل بسكان قرى عديدة تمّ احتلالها مؤخراً ؟ فأشار بن ـ غوريون بيده الى ضرورة طردهم الى الشرق»؛ وفعل الجيش ذلك دون ان يبقى دليل تاريخي على دور رئيس الوزراء. وهذه الحادثة نقلها رابين في مذكراته بداية، ثم حذفها، الى ان أعلن عنها كيدرون الذي حرّر المخطوطة. والثالثة، وقوع موريس في فخ من صنعه؛ اذ استعرض الاحداث التي اصابت المجتمع الفلسطيني بشكل مجزّأ، حيث قسّمها حسب المراحل الزمنية، وأيضاً حسب المنطقة الجغرافية، بحيث تضيع قدرة القارىء (والكاتب) على فهم اثر كل حدث على الاحداث الاخرى، لأنه تمّ فصلها اصطناعياً. ونتج عن ذلك تشديد مبالغ به على عوامل معيّنة أدّت الى الهجرة الفلسطينية، كدور النخبة المحلية، وتقليل حقيقة الوقع المعنوي السلبي الهائل للمجازر الاسرائيلية. ويتضح ما سبق، مثلاً، عند وصف احداث حيفا؛ اذ درس المؤلف النزوح الكبير والهلع الجماعي دون اعتبار كافٍ لاثر مجزرة دير ياسين قبل أيام.

يستنتج القارىء الفلسطيني ان هناك عوامل وأبعاداً عديدة اضافية لم يأخذها في الحسبان سابقاً، ويحق له الاستنتاج، أيضاً، ان القيادة الصهيونية أدركت، في وقت أبكر وبشمولية أكبر ممّا أدركها موريس، ان ما تقوم به هو أكثر بكثير من مجرد عمليات عسكرية متفرقة بنتائج تهجيرية «صدفة»؛ اذ كانت تلك القيادة تنظر الى الوضع العام والى مجمل الاعمال المتفرقة لترى وجهتها الاجمالية، فكان لا بد لها من ان تدرك، تماماً، ماذا تصنعه يداها. ولكن، في المقابل، جسّد هذا الكتاب مساهمة هامة في تصحيح السجل التاريخي المشوّه. وهي محاولة جريئة من قبل كاتب اسرائيلي. وقد قدّم موريس مادة ثمينة من الارشيف الصهيوني ـ الاسرائيلي، تبدّد خرافات وأكاذيب عتيدة. وبذلك، يلقي المؤلف قفاز التحدي أمام الفلسطينيين كي يقوموا هم بدراسة وتسجيل تاريخهم الخاص. فما زالت هناك اسئلة عديدة حول دور الفئات الفلسطينية المختلفة، وحول استجابة كل فئة ومنطقة وقرية للخطر الصهيوني الدائم. ولم يقم الفلسطينيون حقيقة، حتى الآن، بدرس مكامن القوة والضعف التي ظهرت خلال تلك الحقبة المأساوية؛ ولم يسجلوا الحقائق ووجهة النظر كما رآها الجانب الفلسطيني. ولن تتم الاجابة عن الثغرات او الاخطاء في رواية موريس في غياب جهد تأريخي فلسطيني مماثل.

د. يزيد صايغ